SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.25 NO. 2 2026
DOI: 10.51984/6YZAWY71

جامعة سبها للعلوم الإنسانية مجلة
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: http://www.sebhau.edu.ly/journal/johs

السياسة الروسية تجاه ليبيا من العهد القيصري حتى نهاية الحرب العالمية الثانية

عطية سليمان عطية بومعلومة
باحث أكاديمي ، البيضاء، ليبيا

الملخص

يتناول هذا البحث تطور السياسة الروسية والسوفيتية تجاه ليبيا منذ العهد القيصري وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، مع التركيز على الأبعاد الجيوسياسية والأيديولوجية التي حكمت هذا التوجه. ويبين البحث أن السياسة الروسية القيصرية اتسمت بضعف الاهتمام المباشر بليبيا، واقتصرت في معظمها على محاولات محدودة لاختراق البحر المتوسط وتأمين موطئ قدم بالقرب من "المياه الدافئة"، إضافة إلى بعض الرحلات العلمية والفردية التي وثقت الواقع الليبي خلال القرن التاسع عشر. ومع قيام الثورة البلشفية عام 1917، شهدت السياسة الخارجية السوفيتية تحولاً ملحوظاً، إذ تبنى الاتحاد السوفييتي خطاباً أيديولوجياً داعماً لحركات التحرر الوطني ومناهضاً للاستعمار، إلا أن هذا الدعم ظل في إطار التنظير السياسي أكثر من كونه دعماً عملياً للمقاومة الليبية. كما يوضح البحث أن موقف "الكومنترن" من الحركات الوطنية الليبية اتسم بالتباين؛ حيث أبدى اهتماماً بالحركة السنوسية بوصفها حركة مقاومة قادرة على مواجهة الاستعمار، في حين تجاهل الجمهورية الطرابلسية. ويبرز البحث أن العلاقات السوفيتية الإيطالية، خاصة بعد اعتراف إيطاليا بالاتحاد السوفييتي، أسهمت في تراجع الاهتمام السوفييتي بالقضية الليبية لصالح اعتبارات المصالح السياسية والتجارية. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، أعاد الاتحاد السوفييتي صياغة أهدافه الإستراتيجية في البحر المتوسط، وسعى إلى توسيع نفوذه الدولي والحصول على قواعد بحرية ومواقع إستراتيجية في المنطقة، بما في ذلك ليبيا. ويخلص البحث إلى أن السياسة السوفيتية تجاه ليبيا كانت محكومة بالواقعية السياسية والمصالح الجيوسياسية أكثر من التزامها بالشعارات الأيديولوجية، وأن ليبيا تحولت بعد الحرب العالمية الثانية إلى ساحة تنافس دولي أسهمت في تمهيد الطريق لبروز الحرب الباردة.

الكلمات المفتاحية:

الاتحاد السوفييتي
ليبيا
الحرب العالمية الثانية
البحر الأبيض المتوسط
السياسة الخارجية
الحرب الباردة
الكومنترن
الحركة السنوسية
الجيوبوليتيك
الاستعمار الإيطالي

Russian policy towards Libya from the Tsarist era until the end of World War II

Attia Suleiman Attia Boumaalouma
Academic researcher, Al Bayda, Libya

Keywords:

Soviet Union
Libya
Second World War
Mediterranean Sea
Foreign Policy
Cold War
Comintern
Senussi Movement
Geopolitics
Italian Colonialism

ABSTRACT

This study examines the evolution of Russian and Soviet policy toward Libya from the Tsarist era until the end of the Second World War, focusing on the geopolitical and ideological dimensions that shaped this policy. The study demonstrates that Tsarist Russian policy toward Libya was characterized by limited direct interest, mainly confined to attempts to penetrate the Mediterranean region and secure access to the "warm waters," in addition to several individual scientific expeditions that documented Libyan society during the nineteenth century. Following the Bolshevik Revolution of 1917, Soviet foreign policy underwent a significant transformation. The Soviet Union adopted an ideological discourse supporting national liberation movements and opposing colonialism; however, this support largely remained theoretical rather than translating into effective material assistance for the Libyan resistance. The study also highlights the differing stance of the Comintern toward Libyan national movements, as it viewed the Senussi movement as a revolutionary anti-colonial force while largely ignoring the Tripolitanian Republic. Furthermore, the research explains that Soviet-Italian relations, particularly after Italy's recognition of the Soviet Union, contributed to the decline of Soviet interest in the Libyan issue in favor of political and economic considerations. With the outbreak of the Second World War, the Soviet Union reformulated its strategic objectives in the Mediterranean and sought to expand its international influence by obtaining naval bases and strategic positions in

*Corresponding author:
E-mail addresses: zzzxom33@gmail.com

Article History : Received 11 May 2026 - Received in revised form 29 August 2026 - Accepted 02 September 2026

the region, including Libya. The study concludes that Soviet policy toward Libya was driven primarily by political realism and geopolitical interests rather than ideological commitments. Consequently, Libya became, after the war, an arena of international competition that contributed to the emergence of the Cold War.

المقدمة

تُعدّ دراسة السياسة السوفيتية تجاه ليبيا من الموضوعات التاريخية ذات الأهمية البالغة؛ لارتباطها المباشر بتحولات النظام الدولي خلال النصف الأول من القرن العشرين، ولا سيما في ظل تصاعد التنافس بين القوى الكبرى على مناطق النفوذ في البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا. وقد مثّلت ليبيا، بحكم موقعها الجغرافي الإستراتيجي، نقطة ارتكاز مهمة في الحسابات الجيوسياسية للقوى الدولية، الأمر الذي جعلها حاضرة في التصورات الروسية القيصرية ثم السوفيتية، سواء في إطار الصراع على "المياه الدافئة"، أو ضمن التنافس الأيديولوجي الذي أعقب الثورة البلشفية وقيام الاتحاد السوفييتي.

وتنبع أهمية هذا البحث من كونه يسعى إلى الكشف عن طبيعة التحول في السياسة الروسية تجاه ليبيا، منذ العهد القيصري الذي اتسم بالحضور المحدود والاهتمام غير المباشر، وصولاً إلى الحقبة السوفيتية التي شهدت تصاعداً ملحوظاً في الاهتمام بليبيا ضمن سياق التنافس الدولي والحرب العالمية الثانية. كما يكتسب البحث أهميته من محاولته الربط بين الأبعاد الجيوسياسية والأيديولوجية التي حكمت السلوك السوفييتي في المنطقة، وتحليل انعكاساتها على القضية الليبية في مرحلة دقيقة من تاريخها السياسي.

ويهدف البحث إلى تتبع تطور الموقف الروسي والسوفيتي تجاه ليبيا، وتحليل العوامل المؤثرة في رسم هذه السياسة، والكشف عن طبيعة العلاقة بين المصالح الإستراتيجية السوفيتية وشعارات دعم حركات التحرر الوطني. كما يهدف إلى إبراز أثر الحرب العالمية الثانية في إعادة صياغة التوجهات السوفيتية تجاه البحر المتوسط وليبيا، وبيان مدى ارتباط السياسة السوفيتية باعتبارات "الواقعية السياسية" أكثر من ارتباطها بالمبادئ الأيديولوجية المعلنة.

وتتمحور إشكالية البحث حول التساؤل الرئيس الآتي: إلى أي مدى شكّلت الاعتبارات الجيوسياسية والمصالح الإستراتيجية المحدد الأساسي للسياسة السوفيتية تجاه ليبيا خلال الفترة الممتدة من العهد القيصري حتى نهاية الحرب العالمية الثانية؟ وينبثق عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية، من أبرزها: ما طبيعة الاهتمام الروسي القيصري بليبيا؟ وكيف تعامل الاتحاد السوفييتي مع القضية الليبية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين؟ وما أثر الحرب العالمية الثانية في تصاعد الطموحات السوفيتية في البحر المتوسط وشمال إفريقيا؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، جرى تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور رئيسة؛ تناول المحور الأول التوجهات الروسية تجاه ليبيا من العهد القيصري إلى الحقبة السوفيتية، بينما خُصص المحور الثاني لدراسة تطور الموقف السوفيتي من القضية الليبية خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين (1919–1940)، في حين ناقش المحور الثالث التحولات الجيوسياسية للسوفييت تجاه ليبيا والبحر المتوسط خلال الحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى بروز التنافس الدولي الذي مهد لبداية الحرب الباردة.

أولاً: التوجهات الروسية تجاه ليبيا من العهد القيصري إلى الحقبة السوفيتية

اتسمت السياسة الروسية القيصرية تجاه ليبيا إبان الحكم العثماني بضبابية واضحة وافتقار إلى رؤية استراتيجية منظمة؛ فبالرغم من محاولات الإمبراطورة "كاترين الثانية" في الربع الأخير من القرن الثامن عشر للتفاوض مع "علي باشا القرمانلي" بغية تأمين قاعدة لأسطولها البحري في خليج البمبة — وهي المساعي التي أُحبطت جراء التدخل الدبلوماسي الفرنسي (روفيري، فرانشيسكو، 2014م، ص 45)— إلا أن روسيا لم تسعَ فعلياً لتأسيس روابط سياسية أو اقتصادية مستدامة مع حكام طرابلس الغرب. ومع نشاط حركة الرحالة الأوروبيين المدعومين حكومياً في القرن التاسع عشر، ظل الدعم الرسمي الروسي غائباً عن هذا المضمار، لتقتصر الإسهامات على مبادرات فردية ذات قيمة علمية وتاريخية؛ حيث زار الرحالة "فسيفولوجسكي" مدينة بنغازي عام 1836م، ووثق في كتابه "رحلة عبر جنوب روسيا والقرم إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى وشمال إفريقيا 1826-1837م" تفاصيل دقيقة عن حياة البدو في إقليم برقة. وفي السياق ذاته، برزت جهود الطبيب الروسي "باسيف" الذي ركز على دراسة قبائل الطوارق في الصحراء الليبية، مخلداً مشاهداته في كتابيه "التجوال في أصقاع الدنيا" و"رحلة انثروبولوجية إلى الصحراء — طرابلس، تونس، الجزائر" الصادر عام 1885م، والذي قدم فيه وصفاً دقيقاً لمرابض القوافل وعادات المجتمع الليبي وتقاليده (شفيدون. ف روميا نتسيف، 1986م، ص ص 11-13)، مما يعكس أن الوجود الروسي آنذاك كان نتاج شغف معرفي شخصي لم يرتقِ إلى مستوى التوجه السياسي الرسمي للدولة تجاه المنطقة.

إن القصور الواضح في السياسة الخارجية الروسية خلال تلك الحقبة لم يكن مجرد صدفة، بل نتج عن عجزها عن مواجهة القوى الغربية التي كانت تسيطر بقوة على البحر المتوسط، وتوج ذلك القيود القاسية التي فرضتها معاهدة باريس عام 1856م، والتي حولت روسيا فعلياً إلى ما يشبه السجين داخل البحر الأسود بمنع سفنها الحربية من عبور المضائق التركية نحو المياه الدافئة. هذا الحصار لم يكن مجرد نص قانوني، بل كان خناقاً حقيقياً دفع روسيا للقيام بعدة محاولات مستميتة لكسره، بدأت أولاها في عام 1896م فيما عُرف بعملية البوسفور التي كانت تهدف لفرض واقع جديد بالقوة، ثم تكررت المحاولة خلال الحرب الروسية اليابانية حين وجدت روسيا نفسها مكبلة وعاجزة عن نقل قواتها البحرية لإنقاذ الموقف، وصولاً إلى محاولتها استغلال الأزمة في ليبيا وانشغال الدولة العثمانية بالحرب مع إيطاليا للمطالبة بفتح هذه الممرات (.Нина Влабцро Бнаваси Льева,2017,p45) إن كل هذه التحركات تُظهر بوضوح أن روسيا كانت تدرك أن قوتها ستظل منقوصة ومحاصرة، وأن طموحها في التحول إلى قوة عالمية سيبقى معلقاً ما لم تجد مخرجاً من ذلك "السجن المائي" الذي فرضته عليها الدول الغربية لتأمين مصالحها ومنع التمدد الروسي بعيداً عن شواطئه الشمالية.

شهدت العشرية الثانية من القرن العشرين مخاضاً تاريخياً عسيراً ولادة أحداث جسام أعادت رسم خارطة التوازنات الدولية بصورة جذرية، حيث تداخلت أصوات المدافع في الحرب العالمية الأولى مع صيحات التغيير التي أطلقتها الثورة البلشفية في روسيا القيصرية عام 1917. ولم تكن هذه الثورة مجرد تبدل في موازين القوى الداخلية، بل مثلت تحدياً وجودياً وأيديولوجياً

صارخاً للقوى الإمبريالية الغربية، إذ سعت منذ لحظات انطلاقها الأولى إلى صياغة فلسفة سياسية جديدة تتصادم مع الأعراف الدبلوماسية السائدة آنذاك. ومن خلال أطرها النظرية، طرحت الثورة البلشفية منظومة من المبادئ الراديكالية التي استهدفت كسب تأييد الشعوب المقهورة، فتعهدت بتبني سياسة التعايش السلمي مع الأمم المختلفة، ورفع لواء الحفاظ على السلام العالمي المفقود، معلنةً صراحةً رفضها لسياسات الاستيلاء على الأراضي الأجنبية أو التوسع الإمبريالي. كما طمحت الثورة إلى مد جسور الأيديولوجيا نحو الدول النامية عبر دعم إقامة أنظمة اشتراكية فيها، وهو توجه لم يكن عشوائياً، بل جاء كتطبيق عملي ومنطقي لرؤية "فلاديمير لينين" حول الثورة الاشتراكية؛ تلك الرؤية التي تجاوزت التوقعات الكلاسيكية بافتراضها إمكانية صمود وانتصار الاشتراكية في دولة واحدة أو مجموعة دول محددة، ومع تمكن البلاشفة من إحكام قبضتهم وتثبيت دعائم سلطتهم السياسية في ربوع روسيا (Бургано Ваина Нико Лаевна, 2014,p2)، اتجهت أنظارهم نحو صياغة وهندسة سياسة خارجية جديدة تعبر عن تطلعات الدولة السوفيتية الفتية، غير أن هذه السياسة، وبمفارقة تاريخية لافتة، استندت في جوهرها إلى ذات المفاهيم الجيوسياسية التقليدية والمصالح الإستراتيجية العميقة التي طالما اعتمدها ودافع عنها النظام القيصري البائد(Jonne, Campbell, 1961,p26) وقد تركز ثقل هذه المصالح وتجلى بوضوح في النطاق الجغرافي الحيوي المتمثل في الدول والكيانات الواقعة على التخوم والحدود الجنوبية لروسيا، حيث أدرك القادة الجدد ما أدركه أسلافهم من قبل؛ وهو أن الأمن القومي الروسي يرتهن بشكل دائم بضرورة الحفاظ على شبكة من العلاقات المستقرة والودية مع دول ذلك الجوار المباشر. وفي خضم هذا الهاجس الأمني المتجذر، تبلورت قناعة راسخة لدى صناع القرار الروس مفادها أن حماية هذه المصالح الإستراتيجية لا تتحقق دائماً عبر الدبلوماسية وحدها، بل تستوجب في أحيان كثيرة التدخل وبسط النفوذ الروسي على تلك المناطق الحدودية لتشكيل "مناطق عازلة"، وذلك كخطوة استباقية صارمة تهدف إلى سد الطريق أمام أي قوى دولية معادية ومنعها من الاقتراب، أو التغلغل، أو فرض هيمنتها على تلك الدول، مما قد يمثل تهديداً مباشراً للخاصرة الرخوة للاتحاد السوفيتي(Galla Golan, p8)

علاوة على ما سلف، فقد جسدت السياسة الخارجية لروسيا السوفيتية امتداداً للإرث الجيوسياسي القيصري في سعيها الدؤوب للسيطرة على المضايق التركية، المتمثلة في البوسفور والدردنيل(Tamkin , Nicholas, 2009,p2)، بوصفهما الشريان الحيوي الذي يربط حوض البحر الأسود بالمياه الدافئة (Cossa, Ralph A, 1990, p24) والأسواق العالمية والمناطق الإستراتيجية الكبرى(Ириназ Вягельскя, 2015, p2) . ولم تكن هذه التطلعات مجرد رغبة في التوسع الإقليمي، بل كانت تعبيراً عن حاجة بنيوية لتأمين موطئ قدم راسخ في حوض البحر الأبيض المتوسط، وانتزاع مكانة دولية تضاهي مكانة القوى الغربية المهيمنة،(B,B, Беззуб, 2015,P23) التي دأبت تاريخياً على وضع العراقيل الجيوسياسية أمام الطموحات الروسية التوسعية. ومع قيام الثورة البلشفية، لم يشهد هذا النمط من التنافس التقليدي انحساراً، بل طرأت عليه انعطافة جوهرية تمثلت في إضفاء طابع أيديولوجي صدامي على الصراع القائم؛ حيث تحول التنافس من صراع إمبراطوريات كلاسيكي إلى مجابهة بين منظومتين فكريتين متناقضتين، مما زاد من تعقيد المشهد الدولي وحِدّة الاستقطاب في المنطقة.(Karol R. Sory, 2001, P57)

وعليه، يمكن الاستنتاج بأن روسيا السوفيتية قد عمدت إلى ممارسة دور دولي جديد تحت لافتة التغيير الجذري وإعادة صياغة النظام العالمي، حيث تم تأطير المحاولات السوفيتية لاختراق المجال الحيوي للبحر المتوسط وإيجاد موطئ قدم لها بين القوى العظمى في قالب من الشعارات الثورية المناهضة للاستعمار والإمبريالية الغربية. وفي هذا السياق التنظيمي، برز تأسيس منظمة الكومنترن(Comintern) ، أو الأممية الثالثة، عام 1919م، كأداة إستراتيجية بالغة الأهمية في هندسة السياسة الخارجية السوفيتية؛ إذ عملت هذه المنظمة كواجهة أيديولوجية وقوة ناعمة تُغلف وراءها طموحات الهيمنة والتوسع القومي بأساليب مستحدثة، تهدف إلى تقويض النفوذ الغربي التقليدي وإيجاد بديل سياسي يخدم المصالح الإستراتيجية لموسكو تحت غطاء التضامن الأممي ودعم حركات التحرر.

ثانياً: تطور الموقف السوفيتي من القضية الليبية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين (1919–1940)

تُعد الحقبة التي أعقبت الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 وتأسيس "الأممية الشيوعية" (الكومنترن) عام 1919، مرحلة مفصلية في تاريخ التفاعلات بين الأيديولوجيات الثورية الصاعدة والحركات الوطنية في العالم العربي؛ حيث تزامنت هذه التحولات الدولية مع مخاض سياسي وعسكري عسير في الساحة الليبية، أفرز كيانين سياسيين بارزين في إقليمي برقة وطرابلس.

ففي إقليم برقة، ونتيجة لتداعيات الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، سيطر القلق على دوائر صنع القرار في روما من احتمال خسارة الوجود الإيطالي في شمال إفريقيا. هذا التوجس دفع السياسة الإيطالية لمحاولة تحييد "الحركة السنوسية" وفك ارتباطها العضوي بالدولة العثمانية عبر قنوات دبلوماسية معقدة، لعبت فيها بريطانيا دور الوسيط الاستراتيجي. وقد اشترطت لندن حينها ضرورة تنحية الزعيم "أحمد الشريف" ـــ المعروف بولائه المطلق للعثمانيين ـــ واستبداله بالسيد "إدريس السنوسي" كشرط أساسي لضمان نجاح المفاوضات. وبرز في هذا السياق دور "محمد علي علوي"، المترجم بوزارة الخارجية الإيطالية، الذي يُعد العراب الفعلي للعلاقات الإيطالية السنوسية في الفترة ما بين 1904-1921. وأفضت تلك المفاوضات في نهاية المطاف إلى إعلان قيام "حكومة أجدابيا" بقيادة إدريس السنوسي، وهو الكيان الذي أقرّ تقسيماً وظيفياً ونفوذاً مشتركاً في إقليم برقة بين الحركة السنوسية والإدارة الإيطالية.(Ryan, Eileen, 2018, PP 90-101)

وفي ذات السياق التاريخي، شهد إقليم طرابلس حراكاً وطنياً موازياً؛ ففي محاولة لرأب الصدع الناتج عن النزاعات القبلية وتوحيد قادة المقاومة، سعى "سليمان الباروني" إلى استثمار المناخ السياسي الذي أنتجته الاتفاقيات السنوسية الإيطالية في الشرق الليبي للتقرب من الحكومة الإيطالية وانتزاع مكاسب سياسية للإقليم. وتوجت هذه الجهود بإطلاق مبادرة "الجمهورية الطرابلسية" التي أُعلن عنها رسمياً في 16 نوفمبر 1918 بجهود مشايخ وأعيان الإقليم، لتكون أول تجربة لنظام حكم جمهوري في المنطقة العربية.(Г.В. Лукьянов, 2019, P54)

وعلى الرغم من أن كلا الحركتين انبثقتا من رحم المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، إلا أن موقف "الكومنترن" منهما جاء متبايناً بشكل لافت ومنطوياً على حسابات أيديولوجية دقيقة. فبينما سعت الجمهورية الطرابلسية إلى انتزاع اعتراف دولي يثبت شرعيتها ككيان سياسي، قوبلت مساعيها بتجاهل تام

من قِبل المنظمة الشيوعية العالمية، التي لم تصنفها ضمن حركات التحرر الوطني المناهضة للإمبريالية. في المقابل، حظيت الحركة السنوسية بتقدير استراتيجي استثنائي من قِبل الكومنترن؛ إذ نُظر إليها كحركة "إسلامية ثورية" قادرة على الانخراط في جبهة موحدة مع "الأممية العالمية" لمجابهة القوى الاستعمارية. ولم يكتفِ الكومنترن بالاعتراف بها، بل وصفتها أدبيات المنظمة بأنها أقوى الحركات التحررية في شمال إفريقيا، واعتبرتها "قاعدة عمليات" مركزية ومنطلقاً جغرافياً وعسكرياً لمشاريع التحرير المستقبلية في البلدان المجاورة. وبشكل عام، عكست هذه الرؤية الأهمية الاستراتيجية القصوى التي أولاها الكومنترن لليبيا المناضلة، معتبرين أن نجاح الحراك السنوسي يمثل ركيزة أساسية في مشروع تقويض الهيمنة الرأسمالية العالمية.(كرفاع، 2007 ص ص91-95.)

على الرغم من الراديكالية الخطابية التي ميزت الموقف السوفيتي المبكر تجاه المسألة الليبية، والتي بلغت ذروتها في الأدبيات اللينينية بتوصيف الوجود الإيطالي كآلة لحرب "الإبادة الجماعية"،(В.И. Ленина, 1968, P113)إلا أن هذا الموقف ظلَّ حبيس التنظير الأيديولوجي، عاجزاً عن التبلور في صيغة دعم مادي أو عسكري ملموس يغير موازين القوى على الأرض. ويمكن تفسير هذا النكوص بأن المقاومة الليبية كانت في المنظور السوفيتي مجرد "تكتيك" ضمن استراتيجية تقويض الإمبراطوريات، ولم تكن "غاية" في حد ذاتها. وقد تعرضت هذه العلاقة لهزة بنيوية عنيفة إبان المؤتمر السادس لمنظمة "الكومنترن" في صيف 1928م؛ حيث حدثت انعطافة حادة في الفكر الاستراتيجي الشيوعي، تم بموجبها التخلي عن شعار "الجبهة العالمية المتحدة". هذا الشعار الذي كان يمثل الجسر الرابط بين القوى الشيوعية والبرجوازية الوطنية والقيادات التقليدية في المستعمرات، انهار لصالح رؤية راديكالية انعزالية. فقد ذهب المحللون السوفييت إلى أن النخب الدينية والبرجوازية في الشرق قد استنفدت طاقاتها الثورية واستسلمت لمنطق "المساومة" مع الاستعمار، مما جعل أي تحالف معها خيانة للمبادئ البروليتارية(لطريف، ماهر ،1988م، ص69)

إن هذا التحول لم يكن مجرد تغيير في "التكتيك"، بل كان إعلاناً بانتهاء صلاحية "الحركات الوطنية ذات الطابع الديني" في الأجندة السوفيتية. وبالإسقاط على الواقع الليبي، نجد أن المقاومة التي كانت تقودها الزعامات التقليدية والدينية قد جردت -أيديولوجياً- من صفتها "التحررية" في نظر موسكو، لتتحول في أدبيات الكومنترن الجديدة إلى قوى "رجعية" لا تستحق الدعم. وبناءً على ذلك، انحسرت القضية الليبية من أروقة السياسة الخارجية السوفيتية، وتُركت المقاومة الليبية تواجه مصيرها وحيدة أمام الآلة الحربية الفاشية التي استغلت هذا الانكفاء الدولي لتشديد قبضتها. وتجلى عمق هذا الخذلان الأيديولوجي في عام 1931م، حينما تمكنت إيطاليا من القضاء على حركة المقاومة وإعدام رمزيتها التاريخية؛ ففي الوقت الذي كان فيه التراب الليبي يرتوي بدماء المقاومين، كانت البوصلة السوفيتية قد استدارت بالكامل نحو ترتيبات داخلية وأولويات أوروبية، واضعةً حداً نهائياً لرهانٍ ليبي طويل على "عدوِّ العدو" الذي لم يقدم سوى الكلمات(الكرفاع ، 2007 ص97.)

تتجلى إرهاصات التحول في المقاربة السوفيتية تجاه المسألة الليبية من خلال رصد التفاعلات البراجماتية التي طرأت على علاقة موسكو بروما؛ إذ لم يكن الانكفاء السوفيتي عن دعم حركة المقاومة الليبية في مطلع العشرينيات إلا نتاجاً لسياسة "الواقعية السياسية" التي فرضتها ضرورات الاعتراف الدولي بالدولة السوفيتية الوليدة.(Документы Внещней Политиссср. Т7. Моск Ва, 1963.) فمنذ التصريح التاريخي لنيابة الشؤون الخارجية السوفيتية في فبراير 1924م حول آفاق التعاون الثنائي، وما تلاه من اعتراف إيطالي رسمي بالجمهوريات السوفيتية، (Филатовг.с. 1983,P7) دخلت العلاقة بين الطرفين طوراً من التفاهمات البينية التي جعلت من القضية الليبية ورقة مؤجلة على طاولة المصالح الجيوسياسية، مما أدى بالضرورة إلى تباعد الموقف السوفيتي عن زخم الأحداث الميدانية في الداخل الليبي لصالح استقرار القنوات الدبلوماسية مع النظام الإيطالي.(Документы Внешней Политики ссс. Т14, Моск Ва, 1968,)

بيد أن هذا الجمود لم يلبث أن انكسر مع تبدل التوازنات الإقليمية إبان الغزو الإيطالي للحبشة عام 1935م، حيث استعادت ليبيا حضورها في الأجندة الخارجية السوفيتية، لا كقضية تحرر وطني معزولة، بل كأداة وظيفية ضمن استراتيجية الدعاية العالمية المناهضة للفاشية. وعلى الرغم من محاولات الأحزاب الشيوعية في مؤتمر موسكو الأول بعث الروح في نضال الشعب الليبي، (الكرفاع ، 2007 ص98.) إلا أن القراءة الواقعية التي قدمها مندوب الحزب الشيوعي الإيطالي كشفت عن غياب التنظيم الهيكلي للمقاومة آنذاك، مما دفع "الكومنترن" في مؤتمره السابع إلى إعادة صياغة عقيدته السياسية عبر طرح مفهوم "الجبهة الموحدة" التي تجمع القوى الوطنية والشيوعية لمجابهة التوسع الاستعماري، وهو التحول الذي فرضته التهديدات النازية الصاعدة في أوروبا.(الطريف، ماهر ،1988، ص86.)

ومع ذلك، ظل هذا الحراك الأيديولوجي حبيس التنظير المؤسسي، حيث اصطدمت طموحات الأممية الشيوعية بالواقع الميداني المتصلب نتيجة القبضة الحديدية للاحتلال الإيطالي، وانقطاع الصلة العضوية بين الكومنترن والتنظيمات الليبية في المهجر. إن هذا التطور المتثاقل في السياسة السوفيتية يبرهن على أن الموقف تجاه ليبيا في الحقبة ما قبل الحرب العالمية الثانية كان مرتهناً للتوازنات الدولية وشعارات التضامن الأممي التي غالباً ما كانت تتراجع أمام الاعتبارات السيادية والمصالح البراجماتية مع القوى الأوروبية، مما أبقى الملف الليبي في حالة من الركود التاريخي حتى فرضت الحرب العالمية الثانية معطياتها الجديدة التي أعادت تحريك القضية في المحافل الدولية(الكرفاع، 2007، ص 101)

تأسيساً على ما سلف من استقراءٍ لتطور السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي حيال المسألة الليبية، ينكشف لنا بوضوح أن تلك السياسة في الحقبة السابقة للحرب العالمية الثانية كانت مرتهنةً لثنائية حادة بين "الشعار الثوري" و"الواقعية السياسية(Realpolitik) "؛ إذ ظلت الخطابات الأيديولوجية المتمثلة في نصرة حركات التحرر الوطني مجرد غطاء دبلوماسي لم يظفر بترجمة إجرائية على أرض الواقع. فقد آثرت موسكو، في ظل سعيها الحثيث لانتزاع اعتراف دولي بمشروعها، الحفاظ على شعرة معاوية مع روما، مغلبةً اعتبارات المصالح الثنائية واتفاقيات التبادل التجاري مع النظام الفاشي على المبادئ الأممية الراديكالية. ومن ثمَّ، غدت الإشادة السوفيتية بالمقاومة الليبية نوعاً من "الدبلوماسية الرمزية" التي تفتقر إلى الفاعلية المادية، حيث طغت الحسابات السيادية القومية لموسكو على التزاماتها تجاه الشعوب المستعمرة، مما أبقى الملف الليبي في حالة من الركود بانتظار تبدل موازين القوى الكبرى.

ومع انقشاع غبار الحرب في الحبشة، بدأت نذر الصراع العالمي الثاني تتشكل في الأفق كإرهاصاتٍ جيوسياسية عاصفة، مُعلنةً عن انهيار منظومة "عصبة الأمم" وقرب الصدام الحتمي بين المعسكرات الكبرى. وفي تلك اللحظات المحتقنة، شهد المسرح الدولي تقارباً ألمانياً إيطالياً أدى إلى إعادة صياغة موازين القوى في حوض المتوسط، وهو التقارب الذي استجاب له الاتحاد السوفيتي بمناورة دبلوماسية وُصفت بأنها "براجماتية قاسية"، تمثلت في توقيع اتفاقية عدم الاعتداء مع برلين. ورغم العداء الأيديولوجي الوجودي الذي يكنه النظام النازي للبولشفية، إلا أن تقاطع المصالح الآنية فرض هذا "التعايش القلق"؛ فبينما كانت ألمانيا تسعى لتأمين جبهتها الشرقية للتفرغ لسحق القوى الغربية، اتخذ السوفيت وضعية "الاستعداد المتوجس" في الظل، عاكفين على تحصين جبهتهم الداخلية وتحديث ترسانتهم العسكرية، في سباق مع الزمن لمواجهة حتمية لم تكن الاتفاقيات الدبلوماسية سوى وسيلة لتأجيلها((Johathan, Steven Casey, 2011,pp9-10

إن الغوص في أعماق هذه الاتفاقيات يكشف أنها لم تكن نتاج تقارب قيمي أو احترام متبادل، بل كانت "هدنة مؤقتة" أملتها مخاوف "ستالين" من العزلة الدولية، لاسيما بعد إخفاق مساعيه في بناء تحالف رصين مع بريطانيا وفرنسا لصد التوسع الإيطالي الألماني المشترك(Esler , Ellsabeth Gaynor, 2007,p569)

ثالثاً: التحولات الجيوسياسية للسوفييت تجاه ليبيا والبحر المتوسط خلال الحرب العالمية الثانية

مع اندلاع الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية، استشعرت القيادة السوفيتية أن السيولة التي ضربت النظام الدولي قد هيأت المناخ لاستعادة الطموحات الجيوسياسية الروسية العتيقة؛ وهي الطموحات التي تتجاوز حدود الأيديولوجيا لتصل إلى "الحلم التاريخي" بالهيمنة على المناطق الاستراتيجية المؤدية للمياه الدافئة.وفي هذا السياق التحولي، جاء المقترح الجريء الذي تقدم به وزير الخارجية "مولوتوف" في نوفمبر 1940، والذي حمل في طياته رغبة موسكو الصريحة في إعادة صياغة نفوذها عبر المطالبة بقواعد عسكرية على المضايق التركية،(Yaacov, Roi, 1974, P374) مما عكس رغبة في العودة إلى لعب دور "القطب العالمي" المهيمن على ممرات التجارة والسياسة الدولية. إلا أن هذا الاندفاع السوفيتي نحو مناطق النفوذ التقليدية أثار حفيظة "هتلر" وأكد مخاوفه بشأن الأطماع التوسعية لستالين؛ فبينما كان الدبلوماسيون يتبادلون مذكرات التفاهم، كانت هيئة الأركان الألمانية قد فرغت فعلياً من هندسة "عملية بربروسا(Р.Рхисбму Тдинова, 2014,P151 تلك العملية التي لم تستهدف فحسب تدمير الاتحاد السوفيتي ككيان سياسي، بل سعت إلى اجتثاث الأيديولوجية الشيوعية من جذورها وإعادة هيكلة أوروبا الشرقية وفق المنظور العرقي النازي.(.Гурьеве П, 2010 P25) وهكذا، لم يكن إعلان الحرب الألمانية في يونيو 1941 مجرد إجراء عسكري، بل كان إيذاناً ببدء ملحمة دموية أعادت صياغة الوعي العالمي،(Виктор Су Воров-Андрей Буроскийидр,P22) وفرضت على القضية الليبية، وغيرها من قضايا التحرر، أن تدخل فصلاً جديداً من فصول التدويل المرتبط بمخرجات هذا الصراع الوجودي الكبير.

شهدت ساحات الحرب العالمية الثانية انعطافاً تاريخياً جسيماً حينما أعلنت ألمانيا حربها الضروس على الاتحاد السوفيتي، وهو الأمر الذي أذن بانبلاج مرحلة جديدة ومفصلية في تاريخ الصراع العالمي؛ فبالرغم من تلك التحفظات العميقة التي كانت تعتمل في صدور قادة القوى الغربية تجاه المذهب الاجتماعي والنظام السياسي للدول الاشتراكية، إلا أن مقتضيات الواقع الجيوسياسي وضرورات الأمن القومي فرضت عليهما تجاوز تلك الخلافات الأيديولوجية، حيث أيقنت هذه الدول أن التحالف مع السوفييت غدا ضرورة حتمية لا مناص منها لتحقيق أمنها المشترك، وتقويض أركان القوة العسكرية المتنامية لكل من ألمانيا وإيطاليا.(М.Ю. Казак, 2016, P17)

وعلى إثر ذلك التسارع في الأحداث، لم تتوانَ كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عن إعلان دعمهما المطلق والمؤازرة الكاملة للاتحاد السوفيتي في كفاحه ضد العدوان الألماني، ولم يقتصر هذا الدعم على التصريحات السياسية فحسب، بل تبلور في أطر قانونية وتنظيمية دقيقة، بدأت ملامحها تتضح بجلاء حينما اجتمع الزعيمان "تشرشل" و"روزفلت" في الرابع عشر من أغسطس من عام 1941م، ليوقّعا إعلاناً قانونياً وتاريخياً عُرف بـ "ميثاق الأطلسي"، وهو الميثاق الذي غدا فيما بعد من أسمى الوثائق المرجعية للقوى المناهضة لدول المحور في مسعاها لإرساء قيم دولية جديدة.(БЕТАНОВ-А-А-СИРОТКИН, 2012, P12)

واستكمالاً لهذا المسار التحالفي، شهدت خواتيم شهر سبتمبر من العام ذاته انعقاد مؤتمر موسكو، الذي ضم أقطاب التحالف الثلاثة (بريطانيا، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي)، حيث تكلل هذا المؤتمر بتوقيع بروتوكول استراتيجي ينظم توريد الأسلحة والمعدات والموارد العسكرية اللازمة للجيش السوفيتي، في مقابل التزام السوفييت بمد الحلفاء بالمواد الخام الحيوية، مما جسّد شكلاً متقدماً من أشكال التكامل العسكري والاقتصادي في زمن الحرب.(А.В.Карта Пова, 2020, P90)

إن هذا العداء المشترك للنازية لم يكتفِ بصهر هذه القوى المتناقضة في تحالف عسكري واحد، بل أدى بوضوح إلى بزوغ نمط مستحدث من الفكر السياسي، فرض على القوى المتحالفة مفاهيم ورؤى سياسية جديدة انعكست بعمق على طبيعة العلاقات الدولية وتوازنات القوى، ومع ذلك، فإن هذا الفكر السياسي وما صاحبه من تحولات كان يحمل في طياته إرهاصات قد تؤدي إلى تفكيك هذا الحلف في المستقبل؛ إذ إن التحالفات التي تُبنى على ركائز الأزمات الوجودية والعداء المشترك، غالباً ما تبرز فيها التناقضات الكامنة بمجرد زوال الخطر الخارجي الذي أوجدها، مما يجعلها عرضة للانهيار أمام تضارب المصالح الأيديولوجية والسياسية في مرحلة ما بعد الأزمة.

أدى بدء الهجوم على الاتحاد السوفييتي إلى تركيز القوى العسكرية الأساسية لدول المحور في الجبهة الشرقية، وهو ما تسبب في إضعاف قدرتهم على تنفيذ مخططاتهم التوسعية في مناطق أخرى من العالم. فعلى صعيد الجبهة في ليبيا، بدأت القوات الألمانية والإيطالية تعاني من نقص حاد في الإمدادات الضرورية، لاسيما الوقود والدروع والغطاء الجوي الذي يعد عنصراً حيوياً في العمليات العسكرية الصحراوية. (.Акбердин-н.и Британидругие, 2020, P4) وقد تزامنت هذه التطورات في شمال إفريقيا مع اندلاع معركة "ستالينغراد" (فولغوغراد الحالية)، وهي واحدة من أهم المعارك الفاصلة في الحرب العالمية الثانية، حيث استمرت لنحو ستة أشهر (من 21 أغسطس 1942م إلى 2 فبراير 1943م). لعب صمود الاتحاد السوفييتي في هذه المعركة دوراً جوهرياً في استنزاف القدرات العسكرية للمحور، مما أدى إلى إفشال خططهم الرامية إلى شن هجوم مركزي واسع من ليبيا باتجاه مصر، وهو ما مهد الطريق لاحقاً لهزيمة القوات الألمانية

والإيطالية في القارة الإفريقية. وفي أكتوبر 1942م، انتقلت القوات البريطانية إلى منطقة العلمين، حيث شهد ميزان القوى تحولاً جذرياً؛ فبالرغم من التفوق التكتيكي الأولي للمشير الألماني "إرفين رومل" (الذي ولد عام 1891م وعُرف بلقب "ثعلب الصحراء" لمهارته في حرب الصحراء)، إلا أن الجيش البريطاني أصبح أقوى بشكل ملحوظ بحلول فصل الخريف. ويعزى هذا التفوق إلى زيادة تدفق المعدات الحربية الأمريكية إلى بريطانيا عقب دخول الولايات المتحدة الحرب. وتشير الوقائع التاريخية إلى أن القيادة الألمانية اضطرت، تحت وطأة الضغط العسكري في الشرق، إلى تحويل الاحتياطات العسكرية التي كان "هتلر" ينوي إرسالها لدعم "رومل" في إفريقيا وتوجيهها بدلاً من ذلك إلى جبهة ستالينغراد. ونتيجة لهذا القرار الاستراتيجي، ظهرت في شتاء عام 1943م دبابات مصبوغة باللون الأصفر الداكن (الخاص بالصحراء الليبية) وهي تقاتل في سهوب نهر الفولغا المغطاة بالثلوج. هذا الاستنزاف للموارد كان سبباً مباشراً في تراجع قوة المحور في شمال إفريقيا وصولاً إلى هزيمتهم النهائية، وهي الجبهة التي نال فيها "رومل" رتبة المشير قبل أن تنتهي حياته بالانتحار في 14 أكتوبر 1944م.(روسفيد روميا ، ص ص33-35.)

شكل الانتصار البريطاني في معركة العلمين، وتزامن ذلك مع وصول القوات الأمريكية ونزولها في شمال أفريقيا،(A.L. Macfie, 2006, P243) جنباً إلى جنب مع بروز الاتحاد السوفييتي كقوة فاعلة وحاسمة عقب معركة ستالينغراد،(Путин Вла Димир Сергее Вич, Внещняя Политика cccp Bccop 1953-1945,P2) بداية لمرحلة تحول جذري في التوجهات السوفيتية. فلم يعد الطموح السوفيتي مقتصرًا على الصمود العسكري، بل تطور نحو رؤية استراتيجية تهدف إلى تحويل الاتحاد السوفييتي إلى قوة عظمى شاملة من النواحي العسكرية، والسياسية، والاقتصادية، والأيديولوجية.(David Reynolds, 2000 , P9)

وفي سبيل تحقيق هذه المكانة الدولية، انتهجت القيادة السوفيتية سياسة خارجية تعتمد على توسيع نطاق نفوذها من خلال التخطيط لإنشاء قواعد برية وبحرية في مواقع استراتيجية حيوية حول العالم. (George W. Breslauer, 2016, P10) واعتُبرت هذه الخطوة الركيزة الأهم في السياسة السوفيتية لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث هدفت إلى تعزيز الوجود الدولي للاتحاد السوفييتي وتثبيت موقعه بين القوى العظمى. ومن خلال هذا المسار، سعى الاتحاد السوفييتي إلى المساهمة في صياغة نظام دولي جديد يضمن له دوراً محورياً في إدارة التحديات المستقبلية والتأثير المباشر في مجريات الأحداث العالمية.

أدركت العقول المدبرة للسياسة السوفيتية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبصورة لا لبس فيها، أن خارطة العالم تضم مواقع جغرافية ذات ثقل جيواستراتيجي فائق، لا يمكن لأي قوة عظمى طامحة أن تغفل عنها؛ حيث تركزت أنظار موسكو على نقاط ارتكاز حيوية تتمثل في قناة السويس، ومضيق جبل طارق، ومضيقي البوسفور والدردنيل. وكان المنطلق الأكاديمي والسياسي لهذه الرؤية يستند إلى أن السيطرة على هذه الممرات، أو حتى امتلاك نفوذ فاعل فيها، لا يمنح الدولة مكانة سياسية مرموقة فحسب، بل يمتد ليشمل أبعاداً اقتصادية واستراتيجية بالغة الأثر، تجعل من المتحكم فيها رقماً صعباً في توازنات القوى الكبرى وميدان التنافس الدولي.(Murat Picak-polrical, 2011, P174)

وفي الوقت الذي كانت فيه القوى الغربية تبسط هيمنتها المطلقة على هذه المناطق الحيوية، وجد الاتحاد السوفييتي نفسه مفتقراً لأي تأثير حقيقي على المعابر والمضايق الاستراتيجية في حوض البحر الأبيض المتوسط. وبالرغم من أن حركة السفن التجارية السوفيتية كانت تسجل عبوراً سنوياً محدوداً بين جبل طارق والمضايق التركية،(Gordon H. Mccormick, 1987, PP5-6) إلا أن هذا التواجد الرمزي لم يكن إلا دليلاً على حالة الانكفاء الجيوسياسي التي عاشها الاتحاد السوفييتي في تلك المرحلة التي تلت الحرب. وأمام هذا الواقع، برزت على رأس أولويات القيادة السوفيتية ضرورة كسر طوق العزلة المفروض عليها، والخروج من حيز البحر الأسود الضيق نحو آفاق البحر الأبيض المتوسط، سعياً لإقامة معاقل ونقاط ارتكاز ثابتة هناك.(P115 A.A.Калчн, 2015,)

لقد استهدفت هذه السياسة السوفيتية تقويض الهيمنة الغربية التي كانت تعمل بحرص على منع وصول السوفييت إلى "المياه الدافئة"، (Geoffrey Roberts, 2011, PP58-59) وهو طموح تاريخي قديم سعى الاتحاد السوفييتي لتحقيقه عبر أدوات حديثة. وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف، انتهجت موسكو استراتيجية تقوم على إنشاء ما يُعرف بـ "حزام الأمان" على طول حدودها البحرية والبرية المتاخمة للمتوسط، وذلك بهدف تأمين عمقها الاستراتيجي وحمايته من أي تهديدات خارجية محتملة. (A.A.Калчн, 2014, P193) ولم يقتصر الأمر على الجوانب الدفاعية، بل امتد ليشمل بناء شبكة من الدول الصديقة والموالية في مناطق الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، لتكون بمثابة حلفاء يدعمون التوجهات السوفيتية في المحافل الدولية والميادين العسكرية.(Mearsheimer, Johnd, 2014,P193)

وعلاوة على ذلك، كانت هذه السياسة تهدف في جوهرها إلى تجاوز القوة البحرية للدول الغربية والوصول المباشر إلى مصادر الموارد الطبيعية والمواد الخام التي تزخر بها المنطقة. كما سعى الاتحاد السوفييتي من خلال هذا التوسع إلى فتح الممرات المؤدية إلى المحيطين الأطلسي والهندي أمام أساطيله وغواصاته، بما يضمن له حرية الحركة والمناورة على مستوى عالمي. وبالتوازي مع هذه الطموحات العسكرية والاقتصادية، عمل السوفييت على نشر الأيديولوجية الشيوعية في دول العالم الثالث(الجمال ، أحمد عبد القادر ، 1955م، ص 45)، متخذين من هذه المناطق منطلقاً لإعادة تشكيل الخريطة الجيوسياسية العالمية؛ وبذلك لم يكن الهدف السوفييتي مجرد تأمين حدود، بل كان سعياً حثيثاً لترسيخ مكانة الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى تفرض سيادتها ليس على اليابسة فحسب، بل وتمتلك زمام المبادرة في البحار والمحيطات الدولية.

مع إسدال الستار على الفصول الدامية والأخيرة من الحرب العالمية الثانية، وتبلور ملامح انتصار الحلفاء، استشعرت القيادة السياسية في الاتحاد السوفييتي أن اللحظة التاريخية قد باتت مواتية لتوسيع رقعة نفوذها الجيوسياسي وتجسيد طموحاتها التوسعية المؤجلة. وبناءً على هذا الإدراك الاستراتيجي، شرع صناع القرار في الكرملين في إرساء دعائم وأسس متينة لسياسة خارجية هجومية تتناسب مع حقبة ما بعد الحرب. وفي هذا السياق، انخرط المسؤولون السوفييت في سلسلة من المباحثات الدبلوماسية واللقاءات غير الرسمية، والتي تمحورت بشكل أساسي حول ضرورة كسر العزلة البحرية لموسكو.(Necmeddin sadak, 1949,P459) وقد تجلى ذلك في مساعي الدولة السوفييتية الحثيثة للحصول على ضمانات حقيقية وملموسة

من القوى الغربية تتيح لها إقامة قواعد عسكرية، برية وبحرية، على مضيقي البوسفور والدردنيل التركيين، كخطوة أولى نحو اختراق حاجز البحر الأسود وإيجاد موطئ قدم راسخ في مياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة.(Ramzi Onirozcan, 2010, P39-40)

في خضم هذا التوجه الجيواستراتيجي الجديد، برزت ليبيا في مقدمة الاهتمامات السوفييتية، مستفيدة من موقعها الجغرافي الحاكم على الساحل الجنوبي للمتوسط، وما كانت تعانيه من فراغ سياسي وأمني ناجم عن هزيمة دول المحور.(Mearsheimer,Johnd, op. cit., p. 323) والجدير بالتحليل هنا هو أن هذا الاهتمام السوفييتي المفاجئ بالملف الليبي كان مدفوعاً باعتبارات "براغماتية" وواقعية بحتة، متجرداً من أي عباءة أيديولوجية؛ ففي أعقاب الحرب، طرأ تحول جذري على ملامح السياسة السوفييتية تجاه ليبيا، وكأن رياح التغيير قد أزاحت الرمال لتكشف عن مسارات لم تُسلك من قبل. ففي حقبة ما قبل الحربين، لم يكن الاتحاد السوفييتي يرى في الفضاء الليبي سوى امتداد صحراوي شاسع وبعيد يكتفي بمراقبته عن كثب دون أدنى رغبة في التدخل، بل إن موسكو تخلت حتى عن شعاراتها الأيديولوجية الرنانة بمجرد تحسن علاقاتها التكتيكية مع إيطاليا الفاشية آنذاك.(Nicholas tamkin, op. cit., p. 167.) وقد كان هذا الانكفاء انعكاساً للعواصف والأزمات الداخلية التي عصفت بجذور الدولة السوفييتية ومنعتها من التمدد. ولكن، ما إن استردت الدولة عافيتها وتوطدت أركانها بعد الحرب، حتى أصبحت "السياسة الواقعية" هي البوصلة الوحيدة التي توجه خطاها.

وانطلاقاً من هذه النظرة البراغماتية الصرفة، لم تتبلور لدى السوفييت أي رؤية واضحة أو مشروع سياسي لمستقبل ليبيا المستقلة، بل تركز جُل اهتمامهم على تحويلها إلى مجرد قاعدة إستراتيجية متقدمة في الحوض المتوسطي، متجاهلين تماماً دورهم المزعوم في دعم حركات التحرر الوطني. وتأكيداً على هذا النهج، لم تتخذ موسكو أي خطوات فعلية أو جادة لمساندة حركة المقاومة الوطنية في ليبيا، بل وانقطعت صلاتها تماماً بالتنظيمات السياسية والقيادات الليبية في المهجر؛ فلم يُسجل أي تواصل مع جماعة السيد إدريس السنوسي في مصر، أو جمعية التوداد والتعاضد في تونس، أو جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي في دمشق، فضلاً عن تجاهل جماعة أحمد سيف النصر في تشاد. (منصور ،، 2020، ص581)

ورغم هذا الغياب التام عن المشهد الوطني الليبي، إلا أن السوفييت، ومع طي صفحة العمليات العسكرية في شمال إفريقيا، دخلوا في مساومات حادة مع حلفائهم الغربيين، مطالبين بحقهم في المشاركة في كعكة تقسيم المستعمرات) وقد ارتكزت الدبلوماسية О.В.Больнакоба, 1998, P211الإيطالية.(السوفييتية في تبرير هذه المطالب على حجج عسكرية؛ أولاها مشاركة القوات الإيطالية في سفك الدماء السوفييتية على الجبهة الشرقية، وثانيتها أن الصمود السوفييتي الأسطوري والانتصار الحاسم في معركة "ستالينغراد" هو الذي قصم ظهر المحور، ومهد الطريق عملياً للقوات الأنجلو-أمريكية لاجتياح شمال إفريقيا والسيطرة عليها، مما يمنح موسكو حقاً أصيلاً ومكتسباً في تلك المستعمرات.(Johnd Mearsheimer, op. cit., p. 112.)

في بداية هذه المناورات السياسية، سيطر على صانع القرار السوفييتي تصورٌ خاطئ مفاده أن بريطانيا العظمى ستكون هي الخصم والمنافس الأوحد في الساحة الليبية، خاصة بعد نجاح القوات البريطانية في فرض سيطرتها العسكرية والإدارية على إقليمي طرابلس وبرقة. وتوهّم الساسة السوفييت إمكانية نسج تحالف تكتيكي (أمريكي-سوفييتي) لكبح جماح التوسع الإمبراطوري البريطاني في المنطقة بشكل عام، وفي ليبيا على وجه الخصوص، استناداً إلى فرضية أن الهيمنة البريطانية ستصطدم حتماً بالمصالح التجارية والإستراتيجية الأمريكية في المتوسط. إلا أن هذه القراءة السوفييتية سرعان ما تبددت مع اقتراب الحرب من نهايتها؛ حيث تجلى بوضوح أن هنالك توافقاً أنجلو-أمريكياً متيناً يهدف إلى تطويق النفوذ السوفييتي ومنعه من الوصول إلى الموانئ الليبية.(Ronan Butler – M.E Pelly, 1948,P226) وقد وثّقت البرقية التاريخية الدقيقة التي بعث بها الدبلوماسي السوفييتي المخضرم "نيكولاي توفيكوف" إلى الزعيم "جوزيف ستالين" هذه الحقيقة، حيث كشف فيها بوضوح عن المساعي الحثيثة لواشنطن لإحكام قبضتها على البحر الأبيض المتوسط، محذراً من وجود تحالف إستراتيجي غير معلن بين الولايات المتحدة وبريطانيا يستهدف تقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذحصرية وإقصاء السوفييت منها بالكامل(A.A.Калчнчн,P239 .)

وعلى الجانب الآخر من المشهد الدولي، كانت العواصم الغربية في بادئ الأمر تميل إلى التغاضي عن الخطر الجيوسياسي الكامن في التمدد السوفييتي، إذ لم ترَ في موسكو سوى حليف عسكري مؤقت أملته ضرورات المعركة ضد النازية، حليف لا يشكل تهديداً مباشراً لمصالحها الإستراتيجية حتى منتصف عام 1943م. بل إن الغرب كان يراهن على تفهم السوفييت للأهمية الحيوية التي يمثلها البحر المتوسط لشريان الحياة الغربي. غير أن رياح السياسة الدولية تغيرت مساراتها بشكل عاصف ومفاجئ إبان انعقاد "مؤتمر طهران" التاريخي في أواخر عام 1943م. هذا المؤتمر، الذي شهد أول قمة مباشرة جمعت ما عُرف بـ "الثلاثة الكبار" أو الترويكا العالمية (فرانكلين روزفلت، ونستون تشرشل، وجوزيف ستالين)، والذي خُصص لمناقشة تسويات السلام لما بعد الحرب،((Ariel Davis, 2021,P1-10) شهد مفاجأة مدوية حينما طرح ستالين بكل وضوح وحزم مسألة حق بلاده في امتلاك موانئ بحرية وقواعد ارتكاز دائمة في البحر الأبيض المتوسط.(Antony R. Deluca, P510 1977,)

عند هذه اللحظة الفارقة، سقطت الأقنعة وتكشفت النوايا، وأدركت القوى الغربية بما لا يدع مجالاً للشك أن الاتحاد السوفييتي قد انتقل من مربع الدفاع عن النفس إلى مربع الهجوم والتوسع؛ وأنه بات يتبنى نهجاً إمبراطورياً يخطط من خلاله للوثوب نحو حقول النفط الوفيرة في الشرق الأوسط،(Mortin H. Folly, 2000, P117) والتحكم في الممرات والاتصالات البحرية الحيوية في شرق المتوسط وشمال إفريقيا. لم يتوقف القلق الغربي عند هذا الحد، بل تبلور إدراك عميق بأن النصر المدوي في ستالينغراد لم يصنع مجرد دولة منتصرة، بل أفرز "قوة عظمى" جبارة، تمتلك الموارد والجيوش والإرادة السياسية القادرة على تحدي وإجهاض المخططات الغربية.(A.B. Саммохин, 2016, P32) لقد كان الطموح السوفييتي بمثابة جرس إنذار مدوٍ في أروقة صنع القرار الغربي، الذي كان يسابق الزمن لإرساء دعائم نظام عالمي جديد أحادي التوجه، نظام يجعل من العواصم الغربية المركز الأوحد للسياسة العالمية، ومصدر قوتها، وحارس مقدراتها

خلاصة القول، واستناداً إلى ما سلف استعراضه وتحليله في هذا المبحث، يتضح لنا بجلاء أن حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن مجرد نهاية لصراع عسكري دموي، بل كانت نقطة انطلاق لصراع جيواستراتيجي أعمق وأشد تعقيداً، لعب فيه الاتحاد السوفييتي دوراً محورياً قلب موازين القوى

التقليدية. لقد برهنت السياسة السوفييتية في تلك المرحلة على براغماتية حادة تخلت عن المثاليات الأيديولوجية لصالح "السياسة الواقعية" الخشنة، حيث تحولت أنظار موسكو من الانكفاء الداخلي إلى التمدد الخارجي، جاعلة من المضايق التركية وسواحل شمال إفريقيا—وعلى رأسها ليبيا—أهدافاً إستراتيجية لا غنى عنها لكسر طوق العزلة التاريخي وتأمين الوصول إلى المياه الدافئة.

إن التجاذبات الدبلوماسية حول تقسيم المستعمرات الإيطالية، والصدامات الصامتة التي تبلورت في مؤتمرات يالطا وطهران، لم تكن سوى إرهاصات أولية لولادة نظام عالمي ثنائي القطبية. لقد فشلت الرهانات الغربية التي استهانت بحجم الطموح السوفييتي، واصطدمت الحسابات السوفييتية بحائط التحالف الأنجلو-أمريكي المتين الذي سعى لاحتكار النفوذ في المتوسط. ومن هنا، يمكننا القول إن المعركة حول النفوذ في شمال إفريقيا والمتوسط لم تكن مجرد تنافس على رمال الصحراء أو موانئ البحر، بل كانت الصدام الأول والمؤسس لـ "الحرب الباردة"، حيث سعت كل قوة لفرض رؤيتها وتأمين مجالها الحيوي في خريطة عالم قيد التشكل، وهو الصراع الذي ألقى بظلاله الكثيفة على المنطقة لعقود طويلة قادمة، جاعلاً من دولها ساحات متقدمة لصراع الجبابرة على قمة النظام الدولي.

الخاتمة

تأسيساً على ما سلف عرضه وتحليله، يتضح أن السياسة الروسية ثم السوفيتية تجاه ليبيا لم تكن وليدة اعتبارات أيديولوجية خالصة، بقدر ما كانت انعكاساً لمعادلات الجغرافيا السياسية والتحولات الدولية التي شهدها العالم خلال النصف الأول من القرن العشرين. فقد ظلت ليبيا، بحكم موقعها الإستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط، جزءاً من التصورات الروسية الهادفة إلى الوصول إلى "المياه الدافئة" وكسر العزلة الجغرافية التي فرضتها التوازنات الدولية على روسيا منذ العهد القيصري.

وقد بيّن البحث أن الاهتمام الروسي بليبيا في المرحلة القيصرية ظل محدوداً وغير منظم، واقتصر على محاولات دبلوماسية متقطعة وبعض الإسهامات العلمية والفردية، دون أن يرتقي إلى مستوى مشروع سياسي متكامل. غير أن قيام الثورة البلشفية وصعود الاتحاد السوفييتي إلى الساحة الدولية أضفى بعداً جديداً على السياسة الروسية تجاه المنطقة، حيث جرى توظيف الخطاب الثوري وشعارات مناهضة الاستعمار في محاولة لاختراق مناطق النفوذ الغربي، بما فيها ليبيا.

كما كشفت الدراسة عن التناقض الواضح بين الشعارات الأيديولوجية السوفيتية والممارسة الواقعية للسياسة الخارجية؛ إذ لم يتحول الدعم السوفييتي للقضية الليبية إلى دعم فعلي مؤثر، بل ظل خاضعاً لحسابات المصالح الدولية والعلاقات مع القوى الأوروبية، لاسيما إيطاليا. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية، اتجه الاتحاد السوفييتي إلى تبني سياسة أكثر براغماتية، ساعياً إلى تعزيز نفوذه في البحر المتوسط وشمال إفريقيا، وإيجاد موطئ قدم في ليبيا ضمن مشروعه الرامي للتحول إلى قوة عظمى عالمية.

ومن ثم، يمكن القول إن القضية الليبية لم تكن بالنسبة للسوفييت هدفاً مستقلاً بحد ذاته، بل كانت جزءاً من صراع دولي أوسع ارتبط بإعادة تشكيل النظام العالمي عقب الحرب العالمية الثانية. وقد أسهم هذا التنافس في جعل ليبيا إحدى الساحات المبكرة للصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي، الأمر الذي مهد تدريجياً لظهور الحرب الباردة وما رافقها من تحولات سياسية وإستراتيجية في منطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا.

قائمة المصادروالمراجع

الوثائق

[1]- В.И. Ленина, 1968, Полное Собраное Сочиений Т22 Моск Ва

[2]- Документы Внешней Политики ссс. Т14, Моск Ва, 1968, с287-288, Торго Выи Обмен Между Советск Имсоюзо Миита Лией, 1930.

[3]- Документы Внещней Политиссср. Т7. Моск Ва, 1963. С66. Интервьюзе Мести Тля Наро Днаго Газе Тииз Вестяо Т6ф Евраля.1924

المراجع العربية.

[4]- الجمال ، أحمد عبد القادر ، 1955م، من مشكلات الشرق الأوسط، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،

[5]- روفيري، فرانشيسكو، 2014م، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية، ترجمة: إبراهيم أحمد المهدوي، بنغازي، دار برنبتشي

[6]- شفيدون. ف روميا نتسيف، 1986م، العلاقات السوفيتية الليبية، ترجمة: جلال الماشطة، دار التقدم، موسكو

[7]- الطريف، ماهر ،1988م، الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين 1919-1948م، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ط1.

[8]- الكتب الأجنبية

[9]- كرفاع، المختار الطاهر ، ليبيا في السياسة الخارجية لروسيا ـ الاتحاد السوفيتي 1911-1951م، ليبيا-الزاوية، منشورات جامعة السابع من أبريل، ط1، 2007م

المراجع الأجنبية

[10]- A.L. Macfie, 2006, The Turkish straits in the second world war 1939-1945, London, Routledge Middle Eastern study

[11]- Antony R. Deluca, 1977, Soviet American politics and the Turkish straits, New York, Academy of political science Wiley, vol. 22, No. 3.

[12]- David Reynolds, 2000, Britanna overruled British policy and world power in the Twentieth century, Essey: pearson Educated limited,

[13]- Esler , Ellsabeth Gaynor, 2007, world idistory: The modern era, USA, New Jersey Edition

[14]- Galla Golan Soviet polices in the Middle East from world war two to Gorbachev, New York, Cambridge University,

[15]- George W. Breslauer, 2016, Soviet strategy in the middle east, London and New York, Routledge

[16]- Johathan, Steven Casey, 2011, Mental Wrignt, Mental Mapsin the Early cold war era, 1945-1968, New York, paly rave Mac Millan

[17]- Jonne, Campbell, 1961, Defence of the Middle East, Problems of American policy, New York, Frederick A. prayer

[18]- Mearsheimer, Johnd, 2014, The Tragedy of Great polities, New York, w.w. Nortony company

[19]- Mortin H. Folly, 2000, Churchill, whitenall and the soviet union, 1940-1945, New York, Palgrave Mecmillan.

[20]- Ryan, Eileen, 2018, Religions Resistance Negotiating Authority in Italian Libya, New York, Oxford University press

[21]- Tamkin , Nicholas, 2009, Britain-Turkey and the Soviet Union 1940-1945, London, Macmillan.

[22]- В,В, Беззуб, 2015, БлижнйВосток Впроек Тах Рооссии Ивe Лико Британии Вгоды Первой Миро Вой Воины 1914-1918, Кибер Ленинка

[23]- Виктор Су Воров-Андрей Буроскийидр, Союзвездысо Свастикой: Встреч Ная, Россия, Безиздательс Тва, Без Даты

[24]- Гурьеве. П, 2010. ссср Вгоды Второй Войны, Санкт-Петербург, Спбинститут истории ран
[25]- Ириназ Вягельскя, 2015, Россия Именяющийся Ближний Восток, Россия, Российскиисовет Помеж Дуна Роднымделам.
[26]- Нцна Влабцро Бнаваси Льева,2017,Чеморскипроливы-Императив Рооссий Скои/ Советской Внешнейполи-Тикив Восточномсре Диземноморье Мифыигеополитическ Иереалиислерваяполо винаххв., Славяней Россия Институт Слб Вянове Дения Россий Скойока Демиин аук
[27]- О.В.Больнакоба, 1998, Зоргбщсредизе Мноморьебез Вел Икихдерж Ав, Журнол. Сочиальныеигума Нитарны Енау Киотеч Ественнаяи Зару Бежная Литера, Моск Ва

الدوريات العربية

[28]- منصور ، حنان سالم ، 2020، التكتلات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية وأثرها على المتوسط، الزاوية، المجلة الجامعة، ع22

الدوريات الأجنبية

[29]- .В.Карта Пова, 2020, Решающийвк Ладсоветского Союзав Разгром Начистской Герма Нии Вое Нно-Полити Чеуправление Вооруж Енных Сил Роои Иской Федерации Военн Ыйу Верситет
[30]- Ariel Davis, 2021, understanding the role of Tehran and Yalta in creating the post war order, The general Assembly, Vol. 2, No. 1, Jan
[31]- Cossa, Ralph A, 1990, Iran Soviet Interests, U.S. Concerns, Number 11
[32]- Geoffrey Roberts, 2011, Moscow's cold war on the peripnerr: Soviet policy in Greece, Iran, and Turky 1943-1948, copyright, vol. 46, No. 1
[33]- Gordon H. Mccormick, 1987, the soviet presence in the Mediterranen, sontamobica catifornia, Rand
[34]- Karol R. Sory, 2001, Great powers and the Middle East after world war II 1945-1955, Slovakia, Asian and African studies
[35]- Murat Picak-polrical, 2011, Economic and strategic Dimension of the tuykey-soviet straits question Emerged after world war II, Turkey, International of Journal of Business and social science, vol. 2, No. 15
[36]- Necmeddin sadak, 1949, Turkey faces the soviets, New York, foreign relations, vol. 27, No. 3
[37]- Ronan Butler – M.E Pelly, 1948, Documents on British policy over seas, London, Series 1, vol. 1
[38]- Yaacov, Roi, 1974, Soviet policy in the Middle East: The case of palestined rhy war II, Moscu, Monderusseet soviéque, vol. 15, n3-4, Juillet- décember
[39]- А.А.Калчн, 2014, Венгерский Вопрос Вотншен Иях ссср, Сщаивеликоб Ритании В1944-1946, Росся, Вестник Вятского Госуда Рственногоу ни Верситета, No.15.31.01303
[40]- А.А.Калчн, 2015, Разног Ласия ссриза Падных Держав Погрческому Вопросу В1945-1946, Россия, Вестник Вятскогоо Госхда Рственногоу Ниве Рситета, No16-01-50066,
[41]- А.В. Саммохин, 2016,Америк Анские Планы Военно-Полити Ческого Проти Вост Ояниясс ССР Назак Лючител Ьном Ztапе Второй Миро Вой Войны, Россия, Новые Истори Ческие Перспек Тивы
[42]- А.Калчнчн, Разногласия ССРИ Западных Державпогреческо Му Вопросу 1945-1946.
[43]- Акбердин-н.и. Бритвинидругие, 2020, Рещающий Вклад Советс Кого Союзавразг Ромначистс Коигер Мании Вгоды Второй Миро Вой Войны, Москва, Главное Военно-Политиче Скоеу Прав Лени Евоор Уженныу Силроссий Ской Федерачии Военныйуни Верситет
[44]- БЕТАНОВ-А-А-СИРОТКИН, 2012, Великя Отече Ственная Война Советского Народ, Россия, Гомельггму
[45]- Г.В. Лукьянов, 2019, Российская Историог Рачияо Трипол Итта Нской Респу Блике 1918-1923, Вливии, Моск, Вестн, Моск, ун-ТА. Сер.13. No1. Востокою Ведение
[46]- И.В.Смольняк, 2015, УисТоКоВ Гюлитики Сдерж И Вания: ЧерномоРС Кие Проливы Какфак Торнаи Ряж ё Нности Внхтри Большой Троикиназа Вер Шающемзта
[47]- М.Ю. Казак, 2016, Вторая Мировая Война Впу Бликач ИяхзАру Бжныхжу РНА Листов, Россия, Белгород, BEL GOROD STATE NATIONAL
[48]- Путин Вла Димир Саргее Вич, Внещняя Политика ссср Вссор 1953-1945, Россия з Нчиклопеия Всемирная История
[49]- Р.Рхисбму Тдинова, 2014, Великая Отечест Венная Война Советскогосюза 1941-1945, Россия, Орнбхргизда Тельствоо Гпу
[50]- Филатовг.с. 1983, Советско-Италья Нские Дипломати Ческ Иеотнощен Ия 1924-1934, Моск Ва, Вкн: Пробле Мыистории

الرسائل العلمية باللغة الأجنبية

[51]- Ramzi Onirozcan, 2010, Soviet land claimsfvom Turky: 1939-1946, ph.D Turkey, Middle east Tecnnical Universit.
[52]- Бургано Ваина Нико Лаевна, 2014, Внешняя ПолИтик Ассср Набли Жнем Востоке : Смена Акцентов Доипослеп Мировойны, Москва, Оренбурго Кийгосу Дарст Венныйу Ниверситет